

فتوى الجهاد الكفائي- دراسة في مضامينها الفكرية وإبعادها السياسية

١.د.حسين عليوي ناصر الزيايدي

د. حسام صبار هادي

جامعة ذي قار – كلية الآداب

المقدمة:

لم تكن فتوى الجهاد الكفائي التي أصدرها المرجع الديني الأعلى السيد علي السيستاني دام ظله الوارف، خلال صلاة الجمعة التي ألقاها الشيخ عبد المهدي الكربلائي في الصحن الحسيني الشريف بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٣، ذات بُعد عسكري وأمني فقط، بل كانت لها مضامين فكرية عميقة وإبعاد سياسية واسعة اسهمت في صد هجومات العصابات الإرهابية، التي كانت تنوي إسقاط حكومة بغداد، والتي تمكنت من السيطرة على مدينة الموصل، مركز محافظة نينوى شمالي العراق، والفتوى تعد من نواذر الفقه الشيعي، فطيلة قرن من الزمن، على الرغم من صدور العديد من الفتاوى الجهادية الدفاعية مثل فتاوى السيد اليزدي ضد البريطانيين، وفتاوى المجدد الشيرازي لرفض الاستفتاء، والإمام الحكيم ضد الأفكار الشيوعية، والسيد الخوئي بدعم الانتفاضة الشعبانية، لم نجد هناك فتوى أوضح إبعاداً واشمل مدلولات بالشكل والمضمون.

ان الفتوى المباركة للمرجعية الرشيدة كانت رسالة سلام موجهة ضد فئة باغية وعملت على إعادة توطين المهجرين في مدنهم التي هجروا منها واعيدت دور العبادة لجميع الديانات و المكونات دون تفريق بين دين او عرق او طائفة وهذا ما عجزت عنه جميع الجهات الرسمية و غير الرسمية .

كانت المرجعية الجهة الوحيدة التي استقبلها الجميع بصدر واسع ولاقت دعوتها لمكافحة التطرف و العنصرية و القتل قبولاً من الجميع فأخترط في الحشد الشعبي العديد من مكونات الشعب العراقي من المسلمين و المسيحيين و الايزيديين و الشبك و ابناء المناطق الغربية فكان الحشد الشعبي بودقة وطنية جمعت كل الأطياف و المسميات وصمام امان العراق والحامي لهذا الوطن^(١).

ولعل من بين أسباب التأثير والفعل الكبير لفتوى الجهاد الكفائي، هو أنها صدرت من أعلى وأبرز مؤسسة دينية، والعامل الآخر للتأثير والفعل الكبير لفتوى الجهاد الكفائي تمثل بتقدير وإدراك طبيعة ومستوى الخطر الداعشي التكفيري، الذي كان قاب قوسين أو أدنى من السيطرة على العاصمة بغداد، ومن جانب آخر أن المرجعية الدينية مؤسسة وشخصاً، كانت وما زالت فوق الانتماءات والاصطفافات الحزبية والفتوية الضيقة، وهي مظلة وملاذ للجميع.

خيار الجهاد الذي اتخذته مرجعية النجف بزعامه السيد السيستاني دام ظله الوارف لم يكن خياراً سهلاً، لذا حاولنا في هذا البحث ان ندرس الأبعاد التي أدت إلى إعلان الجهاد الكفائي ضد تنظيم داعش الارهابي بعد أن سيطر بالقوة على مساحة تقدر بثلاث العراق وكاد أن يفرض تهديده باحتلال مدن بغداد كربلاء والنجف لو لا صمود وأعادت الثقة بالجيش العراقي .

ان البحث والاستنتاج عن دور المرجعية الدينية في العراق لا يمكن ان يعطى استحقاقه وحقيقته دون التوسع في البحث ليشمل الاصول الفكرية لطروحات المرجعية وعمقها الفقهي والفكري من مجمل التطورات والاحداث السياسية والاجتماعية، وتحليل خطابها الديني والسياسي، وبما اننا ملزمين بمحددات هذه الورقة البحثية سنختصر البحث فقط عن فتوى الجهاد الكفائي بوصفه ابرز موقف تبنته المرجعية ودعت اليه واسهم بشكل محوري بإحداث تغييرات مهمة على مستوى تحقيق الامن والاستقرار ومنع حدوث الفتنة الطائفية.

وكان الاساس البحثي لهذه الدراسة هو العطاء الفكري الالامحدود للمرجعية وماصدر عنها من تعليمات عبر الفتاوي والتعليقات والمواظ، لذا فقد كان لها الحضور الكبير في هذه الدراسة التي تسلط الضوء بصورة موضوعية وشاملة ومركزة على فتوى الجهاد الكفائي بوصفها اهم الاحداث التي تبنتها المرجعية الدينية بعد عام ٢٠٠٣.

ان ابرز ما تتصف به المرجعية الدينية هو العمق الفكري والقراءة الحكيمة للأحداث، والتنبؤ الواقعي بالأحداث، فضلاً عن الزهد في الدنيا، وهذا الامر جعل المجتمع مرتبطاً

بها ارتباطاً روحياً قوياً على مر الأزمان، ويستجيب سريعاً لما يصدر عنها من توجيهات، على الرغم من انها لا تمتلك أي سلطة تنفيذية، ولا شك ان التوفيق الالهي والعناية الربانية كانت حاضرة في كل توجهات المرجعية لان عملها يستند الى اسس رصينة خالصة لوجه الله تعالى.

ويؤكد تاريخ المرجعية الدينية على انها ومع الاحداث والمواقف القاسية التي مرت بها بقيت صامدة تواصل توعيتها ونشاطها وارتباطها ^(٢) ، فقد أدت أثراً مهماً لا علي مستوى المسلمين الشيعة او المسلمين عامة ، بل على المستوى الانساني العالمي، وفي هذه الورقة البحثية محاولة متواضعة من الباحث لتسليط الضوء بشكل مركز على اهم مواقف المرجعية الدينية وهي فتوى الجهاد الكفائي.

الحث على التعايش السلمي

يتضح جيداً من خلال فتاوي ولقاءات المرجعية مع المكونات المختلفة من أبناء الشعب على اهتمام المرجعية الدينية بمسألة التعايش السلمي، وهذا الاهتمام لا يمكن قراءته بمعزل عن الظروف التي مرت بها المرجعية لاسيما ما عانته أبان حكم النظام السابق ، وبعد ان حدث التغيير عام ٢٠٠٣، وما افرزته العملية الديمقراطية من نتائج ، بقي الشيعة مستهدفون بشكل يومي ، وانتهى هذا الاستهداف أخيراً بهجوم داعش ٢٠١٤/١٠/٦ على الشيعة أولاً في المناطق الشمالية معلنين ان الهدف وراء ذلك هو النجف الاشرف وكربلاء المقدسة بشكل اساس ، وكما قال أبو محمد العدناني وهو أحد أبرز قيادات تنظيم داعش والمتحدث باسمه في كلمة نشرت على مواقع الكترونية تعنى بأخبار الإرهابيين الذي أكد فيه عزم التنظيم على تصفية الحساب في كربلاء والنجف، وهذا مما فرض على المرجعية الدينية مسؤوليات كبيرة منها مراقبة العملية السياسية والعمل على رعاية النسيج العراقي، وهذا ما تطلب توازناً كبيراً في النظر إلى ذلك ، إذ ان المسؤولية تحولت إلى قضية قلق من ردة الفعل الانتقامية، والحذر من استغلال صمت وصبر الأكثرية، فتحملت المرجعية ثقل المسؤولية وبدأت بتوجيه التوصيات المستمرة لرعاية العملية الديمقراطية التي ترعى جميع المكونات، بدءاً من إقامة دولة مدنية تحفظ

فيها الحقوق من خلال الصندوق الانتخابي إلى عملية المحافظة على القرار المشترك وعدم تهيمش احد.

ولم تحمل الفتوى المباركة أي جانب طائفي على الرغم من الاتهامات التي واجهتها المرجعية في هذا الاتجاه لان الفتوى كانت رسالة سلام وامان ، وقد برهنت المرجعية الدينية في الاعوام التي تلت الاحتلال الامريكي وفي أشد الظروف قساوة أنها بعيدة كل البعد عن أي ممارسة طائفية، وهي صاحبة المقولة الشهيرة عن أهل السنة: "لا تقولوا إخواننا بل قولوا أنفسنا".

حفظ دماء العراقيين

من اولويات المرجعية الدينية الحفاظ على ارواح العراقيين وممتلكاتهم ، وكانت المرجعية صمام الامان الذي يعمل على منع الفتن الطائفية لاسيما بعد تفجير المرقدين المقدسين في سامراء ، وهذا يؤكد الحرص الشديد على دماء ابناء العراق ومحاولة الابتعاد عن ما يؤدي الى اراقة قطرة دم واحدة، ومن المؤكد ان الفتوى المباركة حافظت على دماء العراقيين وعززت الامن المجتمعي .

ومهما بلغ الخلاف بين الفئات والطوائف فليس من الحكمة إلغاء بعضها للبعض الاخر وتجاهلها ، والتعدي عليها واخذ حقوقها ، لأن ذلك يكون سبباً:
١. لتعصب الطرف الذي تؤخذ حقوقه - مهما كان ضعيفاً - لواقعه، وتمسكه به، والاستجابة لدعوات الكره، بنحو يزيد من فجوة الخلاف، ويمنع من فرص التلاقي والتقارب والحوار .

٢. يؤدي إلى تأجج العواطف ، واستحكام العداء والحقد، بنحو قد ينفجر عن صراع دموي، وفتنة عارمة تضر بالجميع ، وتدمر البلد وتفتت وحدته.

٣. يكون ثغرة ومجالاً ينفذ منها الأعداء والذين يرمون بهذا البلد سوءاً ولاننسى ما صدرته المرجعية بياناً بعد حادثة تفجير سامراء ما نصه : "لقد اراد المجرمون التكفيريون الذين ارتكبوا ذلك الاعتداء الاثم ان يجعلوا منه منطلقاً لفتنة طائفية شاملة في العراق ، ظناً منهم انها تقربهم من تحقيق اهدافهم الخبيثة في هذا البلد العزيز ، وذلك

بعد ان عجزوا عن اشعال نار الفتنة فيه لأكثر من عامين منذ بدء الاحتلال ، بالرغم من كل ما ارتكبوه من مجازر وحشية في مختلف الاماكن ولاسيما في المدن المقدسة النجف وكربلاء والكاظمية الى ان يصل وكما ندعو المسلمين وهم يحيون هذه المناسبة الحزينة ويعبرون عن مشاعرهم الجياشة تجاه ما تعرض له ائمتهم عليهم السلام من هتك واعتداء ان يراعوا اقصى درجات الانضباط ولا يأتي منهم قول او فعل يسي الى المواطنين من اخواننا اهل السنة الذين هم براء من تلك الجريمة النكراء ولا يرضون بها ابداً .

ومن الامثلة التي تدلل على حرص المرجعية على الحفاظ على أرواح الأبرياء ، ما حدث في مدينة النجف الأشرف في آب ٢٠٠٤م، أذ دخلت إحدى الجهات المسلحة حالة من المواجهة والصراع والاشتباك المسلح مع قوات الاحتلال، وقد اتخذت من حرم الإمام علي عليه السلام مقراً لها، وأرادت القوات العسكرية الدخول إلى النجف الاشرف بمساندة القوات الأمريكية؛ مما يعني انتهاك حرمة المدينة المقدسة وما لها من مكانة في نفوس المسلمين عموماً والعراقيين بوجه خاص، بادر السيد إلى حلّ النزاع بعد لقاءات متعددة بين الأطراف المتنازعة قام بها ممثلون عن سماحته، وقد أثمرت جهوده المباركة بحل الأزمة بعد أن عجز الكثيرون عن حلحلتها واستطاعت المرجعية بحكمتها ان تحافظ على أرواح المواطنين والمقاتلين ايضاً وعودة الاستقرار والأمن للمدينة المقدسة.

ان المرجعية الدينية اسهمت خلال الاعوام العصيبة الماضية في حقن دماء العراقيين، وكانت طوال تلك الاعوام ، حارساً للسلم الأهلي في العراق، ومدافعاً عن وحدة المجتمع، وعلى الرغم من ان آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله الوارف ، وهو رجل دين وليس رجل سياسة، فقد كشف عن عمق سياسي، وأكد على مواقف غاية في الدقة، خففت كثيراً من غلو الهياج العاطفي الغرائزي، الذي أججته قوى متطرفة، في الشارع العراقي، لاسيما بعد تفجير مرقد الامامين العسكريين عليهما السلام، ومواقف المرجعية تسامت كثيراً عن ذكر اية عبارة تتعلق بالطائفية من قريب او بعيد، وحتى المشاركة الانتخابية فان المرجعية دعت لها بدون الميل لمرشح او قائمة او جهة

سياسية، وأن الامتناع عن المشاركة الانتخابية لأي سبب كان سيعطي الفرصة للآخرين في تحقيق اهدافهم غير المشروعة، "إن المرجعية الدينية العليا في الوقت الذي تؤكد على عدم تبنيها لأية مشاركة في الانتخابات فأنها تشدد على ضرورة أن يختار الناخب من القوائم المشاركة ما هي أفضلها واحرصها على مصالح العراق في حاضره ومستقبله وأقدرها على تحقيق ما يطمح إليه شعبه الكريم من الاستقرار والتقدم، ويختار أيضا من المرشحين في القائمة ما يتصف بالكفاءة والالتزام بثوابت الشعب العراقي وقيمه الأصيلة"^(٣).

الجهاد وحكمة التشريع

الجهاد مصدر جاهدت العدو إذا قابلته في تحمل الجهد أو بذل كل منكما جهده أي طاقته في دفع صاحبه، ثم غلب في على قتال الكفار^(٤)، والمعنى الشرعي للجهاد ينصرف إلى قتال الكفار والظالمين، ويهدف إلى حفظ شعائر الدين والإيمان إقامة العدل، ومن شؤون ذلك الدفاع عن بلاد الإسلام والتصدي لكل عدو يحاول النيل من بلاد الاسلام، وإن من يطلع على مصادر التشريع الإسلامي من الكتاب والسنة يجد فيهما تركيزاً كبيراً واهتماماً ضخماً بموضوع الجهاد، ففي القرآن الكريم ما يقارب (٤٠ آية) تتكلم عن الجهاد بلفظ الجهاد أو من ينوب عنه، فضلا عن مجموعة من الآيات تتحدث عن الجهاد بلفظ الغزو والحرب والشهادة وغيرها، بينما لا نجد في القرآن الحكيم عن الصوم (١٠ آيات) تقريباً. وعن الحج إلا (٨ آيات) فقط، وعن الخمس آية واحدة، وهذا يشير الى اهمية الجهاد في حياة الامة.

وحينما نرجع إلى السنة المطهرة نجد مئات الأحاديث والنصوص تركّز على موضوع الجهاد وتقرّر بصراحة: أن الجهاد أهم وأفضل من جميع الأعمال والعبادات الأخرى، فعن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله): **فَوْقَ كُلِّ ذِي بَرٍّ حَتَّى يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِذَا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيْسَ فَوْقَهُ بَرٌّ**. ويقول الإمام محمد الباقر (عليه السلام): **(الْجِهَادُ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأَعْمَالِ وَفَضَّلَ عَامِلَهُ عَلَى الْعَمَالِ تَفْضِيلاً فِي الدَّرَجَاتِ وَالْمَغْفِرَةِ)**^(٥)

لا يستهدف الاسلام من تشريع الجهاد ما تستهدفه الحروب في المجتمعات الجاهلية او المجتمعات الحديثة من التسلط والاحتلال ، وتحصيل الغنائم والأموال او اشاعة مبدأ او مذهب ، ولا ما ترتكبه الدول في هذا العصر من هدم المباني وتخریب المدن وقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والعزل والمدنيين بالهجوم عليهم ليلاً ونهاراً بالسلاح والقنابل والصواريخ والطائرات وغيرها من أجل الاستيلاء على بلاد الغير سياسياً واقتصادياً وثقافياً^(٧).

يستهدف الاسلام من الجهاد إقامة الدين وبقائه واستمراره، وصيانة كيان الامة وابعاد الخطر المحدق بها لتمارس طقوسها وشعائرها بحرية تامة، ونشر العدل والفضيلة وبسط الحق وتطهير الارض من الظلم والاستبداد^(٨)

ويختلف معنى الجهاد في الله عن الجهاد في سبيل الله، لكن ثمة فارق لطيف بينهما وهو كلمة سبيل، التي توسّطت بين كلمتي "في" و"الله". فهناك جهاد في الله وهناك جهاد في سبيل الله، والأول أقرب وأشدّ إخلاصاً لله تعالى، ونظير ذلك ما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوْذِيَ فِي اللَّهِ﴾ (العنكبوت: ١٠)، حيث يكون الباعث والدافع الوحيد وراء ظلم المشركين للمؤمنين هو قولهم: ربنا الله. أمّا قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ (آل عمران: ١٩٥)، فسبب الظلم هنا هو سلوك المؤمنين طريق الحق واتباع دين الله تعالى.

أولى الإسلام الجهاد عناية خاصة، وأشارت الكثير من النصوص الشرعية إلى فضله وأهميته، وخلاصة ما يمكن أن يستفاد منها أن الجهاد هو عماد الدين عن أمير المؤمنين عليه السلام: الجهاد عماد الدين، ومنهاج السعداء^(٩). عن الامام الصادق عليه السلام : أصل الإسلام الصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله^(١٠)، وقد أولى الإسلام أهمية خاصة للجهاد بسبب ما يتوفر عليه من دعامة قوية وركيزة هامة للدين، وقد أشارت بعض الروايات إلى هذه الحقيقة فعن الإمام الباقر عليه السلام: "الجهاد الذي فضله الله على الأعمال لأنه ظهر به الدين، وبه يدفع عن الدين"^(١١).

موقف المرجعية الدينية من الارهاب

بينت المرجعية المقدسة موقفها من الارهاب بشكل قاطع لا يقبل التأويل ، وراي المرجعية يتمثل بماياتي:-

١. إن الإرهاب لا يمثل الإسلام الحقيقي بأي بوجه.
٢. ان البلدان التي تصدر الإرهاب ليس من البعيد ان تبتلى به.
٣. لا بد من تشكيل اللجان التحقيقية الدولية لمتابعة الجرائم التي لحقت بحق الابرياء.

فتوى الجهاد الكفائي

أن من بركات هذه الفتوى أنها يمكن قراءتها بعدة قراءات ومن اتجاهات مختلفة ، ولا شك ان للفتوى قراءة فقهية ولها قراءة اجتماعية ولها قراءة سياسية واقتصادية وكذلك فإن قراءة أحداث ما قبل الفتوى مهمة جداً، من أجل فهمها بصورة صحيحة، فالأحداث التاريخية تبقى ناقصة اذا قرأناها منقطعة عما قبلها من أحداث مرتبطة بها، ولن تكتمل الصورة إلا إذا اضعنا لها قراءة ومتابعة ما بعد الحدث أيضاً، فقبل الانهيار كان وشيكاً نتيجة عدم البناء الصحيح للمؤسسة العسكرية ولتفشي الفساد المالي والاداري.

تعمل المرجعية الدينية على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم وتقف بالمرصاد لكل ظاهرة او اعتداء ، كما تقوم بدور مهم في إصلاح شؤون المسلمين ومعالجة قضايا الامة ، وتلتزم المرجعية موقف الصمت الواعي والمراقب الدقيق لكل الاحداث، لكنها لا تتدخل بشكل مباشر فموقفها اشمل واغوى واشد تأثيراً " إلا إذا كان الأمر مصيرياً يتعلق باحوال الناس ومصالحهم . وهو امر تقرر المرجعية وفق معاييرها الخاصة .

"تعد فتوى الجهاد الكفائي من أبرز المواقف التي لا يمكن ان يتجاوزها التاريخ وهي تضاف الى مواقف المرجعية من الاحداث الكبرى التي مر بها العراق ان لم تكن أبرزها"^(١)، ولم تكن فتوى الجهاد رد فعل من اجل الحرب والاقتيال ، إذ لا تؤمن المرجعية بعسكرة المجتمع ومنطق القوة ، ونلاحظ في مجمل اطروحات المرجعية انها تدعو للحوار السليم والانفتاح والحكمة والسلم والتعايش السلمي المبني على تقبل الآخر، لذلك يمكن تصنيف الفتوى على انها (فتوى السلام) لان لها ابعاد انسانية كبيرة من

خلال دعوتها الى تحرير الانسان والارض من بطش وقتل اعنى ارهاب عرفه العالم وعجزت عن مواجهته اقوى الماكنات العسكرية والاستخبارية، ومن هنا تتضح اهمية الفتوى.

نتائج فتوى الجهاد الكفائي

ان من أبرز نتائج فتوى الجهاد الكفائي :-

- ١- انها خاطبت جميع العراقيين بجميع طوائفهم ولم تقتصر على فئة او شريحة معينة لان العدو واحد والهدف هو القضاء على الدولة التي تمثل النظام.
- ٢- المرجعية تدعو للانخراط في صفوف القوات الامنية حصرا.
- ٣- كان البعد الوطني الوحدوي هو الاقوى في مفردات فتوى الجهاد الكفائي، اذ ان الخطاب كان لعامة المواطنين وليس للمسلمين او الشيعة فقط.
- ٤- تصف المرجعية كل من يقتل في معارك الدفاع عن العراق بالشهداء، مهما كان انتمائه.
- ٥- اعطت الفتوى زخم كبير للقوات الامنية وعززت من الروح المعنوية لمختلف المؤسسات الامنية .
- ٦- لقد كان للجهاد الكفائي الذي أعلنته المرجعية الأثر الأكبر والحاسم في الحيلولة دون تقسيم العراق، ومنع داعش من التسلط على البلاد ، وان تلك المهمة هي أشرف وأقدس المهمات حيث الحفاظ على وحدة العراق، فاستطاعت المرجعية ممثلة بالمرجع السيستاني (دام ظله) ان توظف كثير من الممكّنات العميقة التي تملكها قوته في صيانة وحدة العراق.
- ٧- منعت ارجاع العراق تحت البند السابع والوصاية الدولية .
- ٨- عززت الفتوى من القانون وهيبة الدولة واعطت دعم كبير للمؤسسة الامنية.
- ٩- اعطت امكانية لإصلاح المنظومة السياسية والامنية .
- ١٠- حشدت المجتمع العالمي والمنظمات الدولية تجاه رعاية النازحين .

١١- أن المرجعية أفتت بالجهاد الكفائي لأنه لا توجد بدائل عن الفتوى، كما حصل تماماً في فتوى تحريم التنباك، التي كانت في حقيقتها ربما فتوى اقتصادية، وهكذا وفتوى ثورة العشرين^(١) التي أطلقها المرجع في وقته، ولنصطلح عليها فتوى عسكرية والحفاظ على السيادة الوطنية، وهكذا مرجعيتنا العليا أيضاً أفتت حيث لم تجد خياراً في حينها غير الفتوى، والمقصود أنه لا يوجد خيار غير الفتوى، ولا يمكن أن نفهم المعنى الحقيقي لهذه الجملة إلا بالقراءة المتأنية إلى ما قبل الفتوى، التي يمكن أن نسميها بفتوى عسكرية سيادية دينية.

أراد الكثير من الاعداء ان يحرف الفتوى المقدسة من خلال تصورها على انها قتال سني شيعي لكن حكمة وهدوء وحركة المرجع السيد السيستاني (دام ظله) استطاع إيجاد مساحة تأييد وغطاء سياسي محلي ودولي واقليمي لها ، وهو يعرف ان العراق يدخل ضمن صراع إقليمي ودولي غاية في التعقيد ، وعليه سعي لأبعاد العراق عن ذلك بكل الوسائل المتاحة ، وقد نجح في ذلك الى حد كبير.

تحليل بيانات المرجعية

١- كل عبارات المرجعية ومصطلحاتها منتقاة بشكل موضوعي ودقيق جداً فهي اكثر تسامحاً ولا تنتمي لمفردات قاموس الأدب السياسي الديني التي شاعت وانتشرت بعد عام ٢٠٠٣.

٢- خلت لغة المرجعية، من أي مفردة دينية أو مذهبية من تلك المفردات التي بدأ بعض العراقيون يتداولونها خلال الاعوام القليلة الماضية في خطاب أحزاب الإسلام السياسي، ولدى (البعض) من السياسيين.

٣- احتوت خطب وبيانات المرجعية على كلمات ومفردات مدنية محببة، مثل (العراق العزيز، مصالح البلد، تقديم الخدمة للشعب ،المواطنون العراقيون، الشعب العراقي الكريم، التقدم والتنمية) بعد ان كادت هذه المفردات تغيب نهائياً خلال فترة الاعوام الماضية من خطاب أحزاب الإسلام السياسي.

٤- التأكيد على مبدأ التعايش السلمي والمجتمعي وتقبل الآخر ونبذ التطرف والعنف ، وهذا يؤسس لثقافة مدنية متقدمة، متسامحة، منفتحة على الآخر، وبعيدة عن الانغلاق ورفض الآخر.

٥- لم تغفل المرجعية مستجدات العصر ، فنصوص المرجعية تؤكد على ضرورة النظام المدني الديمقراطي (الانتخابات)، أي تحكيم أرادة الشعب العراقي كله، وهو أسلوب سياسي يتلائم مع معطيات العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

٦- خلت نصوص المرجعية من أي ميل او مدح او تمجيد او ترجيح لأي شخصية او جهة او تيار او منظمة سياسية كانت او اجتماعية او ثقافية ، والمرجعية بسلوكها هذا قدمت المثل الاعلى في الحيادية والوقوف على مسافة واحدة بين جميع الاديان والمكونات والتيارات، وقد نجد من سيحاول توظيف هذا البيان او ذاك لصالحه إلا أن هذا في حالة حدوثه لن تكون المرجعية مسؤولة عنه. فالنص واضح جدا في حياديته .

ما يميز فتوى الجهاد الكفائي عن غيرها

لم تكن فتوى الجهاد الكفائي الوحيدة في تاريخ المرجعيات الدينية^(١٢) لكن ما يميز هذه الفتوى عن ما سبقها من الفتاوى هي:

١- لم تتعامل هذه الفتوى مع عدو واضح المعالم وله كيان خاص، فتورة العشرين تعاملت مع عدو له كيان خاص، فداعش تنظيم خارج عن مقاييس الأنظمة والمعاهدات الدولية، فلا نستطيع أن نجرمها كدولة ولا يستطيع ثالث ان يتوسط لأنها ليست كيانا واضحا، فكان لابد من الحنكة والدقة والحكمة في التعامل مع هذا الوجود الارهابي الشاذ

٢- تعد فتوى الجهاد الكفائي من اخطر الفتاوى واكثرها حساسية بسبب تعقد المشهد العراقي ، والوضع السياسي الذي يمتاز به البلد لاسيما للمدة ٢٠١٤-٢٠١٦ ، فقد تعاملت الفتوى مع مكونات مختلفة داخل المجتمع العراقي.

٣- الاثر الايجابي الطيب للفتوى من خلال اندفاع الشعب العراقي والدماء العزيزة التي أريقَت، داعش اشبه ما يكون بالسرطان الذي يسري في جسد الامة رويدا رويدا الى ان يقضي عليها لا قدر الله،

٤- انطوت الفتوى على دقة متناهية في التوقيت، بحيث لولا الفتوى لكانت الامور جرت على غير مجرى، بل انحصر الخلاص بالفتوى وهذا الخلاص ما كان يتحقق لولا هذا الاندفاع الكبير الذي اوقف زحف داعش من جهة، وقضى عليها من جهة اخرى. نتائج الفتوى المباركة

١. تحررت الموصل وأعلنت هزيمة تنظيم "داعش" الإرهابي وانهارت دعائمه وتحرر العراق وبقيت كلمة الله هي العليا.

٢. اظهرت الفتوى المباركة اصطفاة الشعب خلف مرجعيته التي أكدت انها لكل العراقيين وليست لمذهب او طائفة فقط، وأكد كل العراق بكل تياراته وأحزابه وقومياته على جدوى الفتوى وحكمة المرجعية، وتطوع من تطوع ليكون الحشد من الشعب وباسم الشعب يقاتل دون تباطىء أو تخاذل، ولتتحد الحشد مع الجيش في الدفاع والتحرير.

٣. بينت الفتوى ان الحرب على الإرهاب باتت حرب وجود لا مجال فيها للتهاون والتنازل قيد أنملة عن شبر واحد من أرض العراق الذي احتله الطامعون بخيراته وسعيه لتأجيج الصراعات الدموية والطائفية فيه، وعندما تصبح الحرب حرب وجود لها كل هذه المعاني تصبح حربا على الإرهاب بكل أشكاله وعليه يجب الضرب بيد من حديد لاجتثاث هذا الإرهاب وجماعته وتطهير العراق من أفكارهم وعقولهم صونا للبلاد وللمنطقة ككل.

٤. حيرت الفتوى المقدسة صناع القرار الغربي ودهاة السياسة وجعلتهم يبحثون عن ماهية المؤسسة الدينية المتمثلة بالمرجعية الحكيمة عليهم يجدون سبلا لاختراقها والتأثير عليها باءت محاولاتهم بالفشل.

٥. التناغم الكبير بين كل مكونات القوات العراقية من جيش وشرطة اتحادية وحشد شعبي وتكاملت الأدوار بين الاداء العسكري للجيش والقوات النظامية وبين اداء حرب الشوارع حيث حصلت المعارك من حي إلى حي ومن بيت إلى بيت في عملية تطهير الأرض من الاحتلال التكفيري.

الاستنتاجات

١- يتبين من خلال البحث أن حكمة السيد علي السيستاني وبعده نظره، وإطلاعه التفصيلي على الأحداث السياسية والاجتماعية، جعلته يتخذ القرار المناسب بالوقت المناسب، ليبقى صوت المرجعية الدينية عالياً شامخاً على جميع الأصوات، فكان إصداره للفتوى علاج مناسب وضروري، لتصحيح الممارسات الخاطئة التي ارتكبت، ودليل على عقليته القيادية وقيادته الحكيمة والحريصة على الأمة، إذ إن فتوى الجهاد الكفائي؛ تمثل قوة وجود المرجعية الدينية العليا، وقراءتها الاستشرافية للمستقبل.

٢- أظهرت الفتوى المباركة وحدة الشعب واصطفافه خلف مرجعيته الدينية التي أكدت انها لكل العراقيين وان هدفها درء الخطر المحدق بهم.

٣- أظهرت الفتوى مكان القوة التي يمتاز بها الشعب في الوقت الذي تفشت فيه حالات اليأس والاستسلام في ظل الظروف السياسية القائمة آنذاك.

٤- قدمت الفتوى خدمة كبيرة ليس للشعب العراقي بكل مكوناته بل للمنطقة عموماً فقد استطاعت الفتوى ان تحم من اقوى واعتى تنظيم اجرامي عرفته البشرية في تاريخها الحديث.

٥- اعطت الفتوى المباركة درساً لكل من يحاول النيل من وحدة العراق واحتلال أراضيه واخضاعه، كما انها حيرت متخذي وصناع القرار الغربي، فالقوة العسكرية بكل جبروتها لم تستطع ان تفعل ما فعلته فتوى الجهاد الكفائي.

٦- تختلف فتوى الجهاد الكفائي عما سبقها لأسباب عدة منها تعقد المرحلة وخطورة العدو وانعدام البدائل.

المصادر والهوامش:

- (١) مجموعة باحثين، الخيار الصعب...قراءة في ابعاد فتوى الجهاد الكفائي ضد تنظيم داعش بغداد، مركز العراق للدراسات الطبعة الاولى ، بغداد، ٢٠١٧.
- (٢) علاء عزيز كريم، موقف الحوزة العلمية في النجف الاشرف من التطورات السياسية في العراق ١٩٢١-١٩٢٤، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل ، ٢٠٠٧، ص ٥.
- (٣) للمزيد ينظر صلاح عبد الرزاق، المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية، منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٠م
- (٤) القونوي، أنيس الفقهاء، ص ١٨١.
- (٥) الكافي، الكليني الرازي: (ج ٥/ص ٣).
- (٦) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٦٤ - ١٦٥.
- (٧) السبزواري، مواهب الرحمن، ج ٩، ص ١٧٨.
- (٨) ميزان الحكمة ج ١ ص ٤٤٤.
- (٩) دعائم الإسلام القاضي النعمان ج ١ ص ٣٤٢.
- (١٠) الكافي ج ٥ ، ص ٣.
- (١١) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، بيروت، ١٩٧٢م.
- (١٢) للمزيد حول تلك الاحداث ينظر:-
- عباس جعفر محمد الإمامي ، الدور السياسي للمرجعية الدينية في العراق الحديث ، دار العلم للنابهين، بيروت، ٢٠١١م.